مجلة الحكمة للدراسات الاسلامية
Eissn :2773-4471 Issn : 2353-043X
المجلد 10 / العـدد: 02 (2023)، ص: 100-123

أثر السياق في الترجيح عند أبي السعود العمادي

The impact of the context on the weighting of Abu al Saud

طالب دكتوراه . إسماعيل قرين[1]

[1]كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر-1 – الجزائر

s.grine@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/09/20 تاريخ القبول: 05/12/ 2023 تاريخ النشر: 04/06/ 2023

الملخص: من القواعد العظيمة التي يُفهم بها كتاب الله، واعتنى بها المفسرون، تتبع سياق القرآن، فلا يمكن لمفسر أن يقف على أسرار القرآن إذا لم يعرف سياق الآية، وقد اعتبره العلماء من أهم عوامل الترجيح عند تعارض الأقوال في الآية، من بين هؤلاء العلماء الذين اعتمدوا أثر السياق في الترجيح أبي السعود العمادي، إذ يعتبر تفسيره من أعظم التفاسير التي اعتمدت هذه القاعدة العظيمة، تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أثر السياق عند أبي السعود

وكان من نتيجة هذه الدراسة اعتماد أبي السعود على السياق في ترجيح الأقوال عند وجود الخلاف، فتفسيره لا يستغني عنه باحث إذا أراد الوقوف على أثر السياق في الترجيح.

الكلمات المفتاحية: أثر، الترجيح، السياق، أبو السعود، التفسير

Abstract One of the great rules by which the qur'an is understood, follow the context of the Qur'an, Scientists considered it one of the most important factors of weigting, Among these scholars are Abu al Saud, This study aims to highlight the impact of the cintexet of Abu al -Saud, As a result of this study Abu al -Saud, depended on the contexet in weighing.

***المؤلف المرسل: د . إسماعيل قرين**

د . إسماعيل قرين

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، كتاب مبين فيه الهدى والنور والشفاء، أعجز أهل البيان ببيانه ودرر أسراره وجودة سبكه وقوة إحكامه، من التجأ إليه نجى ومن اعتصى به اهتدى، ومن حكم به عدل ومن قال به صدق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أما بعد:

يعتبر السياق أحد العوامل المهمة التي يفسر بها القرءان الكريم، حيث جعل للتفسير ضوابط وشروط لفهمه، من أهمها وأوثقها النظر في سياق الآيات، فلا يمكن لمفسر أن يفسر كلام الله من دون النظر في سياقاته وسوابقه ولواحقه، كم أن| السياق أحد العوامل التي يرجح به عند اختلاف العلماء والمفسرين، ومن بين هؤلاء العلماء أبو السعود العمادي، حيث يرجح المسائل التي اختلف فيها أهل التفسير من خلال الاحتكام إلى السياق، وقد ساعده في ذلك عدة عوامل منها: طول باعه في اللغة والبلاغة والفقه والأصول،فهو عالم فقيه أصولي لغوي، وأثره بارز من خلال ترجيحاته، ففي مسائل كثيرة اختلف فيها العلماء، يخوض فيها ويبدي رأيه فيها، ذلك من خلال الأمثلة التي ذكرناها، ثمّ إنّ احتكامه للسياق تارة كان عن طريق التصريح وذلك بقوله السابق أو اللاحق وأحيانا عن طريق الإشارة حيث يقول: ويقوي ذلك قوله كذا وكذا، وتفسير أبي السعود من التفاسير اللغوية التي اعتمدت النكت البلاغية واعتنت بالدراسات البيانية فتفسيره لا يقل أهمية عن تفسير الكشاف والتحرير والتنوير، إذ لا يستغني عنه طالب الدراسات البيانية، بل إن العلماء جعلوه من التفاسير الخمسة التي تقوم عليها الدراسات البيانية، وهي تفسير ابن جرير الطبري وتفسير الكشاف، وتفسير روح المعاني للألوسي، وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وتفسير أبي إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي .

أثر السياق في الترجيح عند أبي السعود العمادي

-من القواعد العظيمة التي يستعين بها المرء في تفسير كلام الله وبيان مراده، الوقوف على سياق الآية والنظر في سابقها ولاحقها ومعرفة الجو الذي من خلاله سيقت له، فلا يمكن لأحد أن يبين مراد الله وهو لا يعلم موضوع الآيات ولا الجو العام ولا سبب النزول، فلا يبرز سر القرءان ودرر البيان من دون الرجوع إلى السياق القرءاني، فإذا تقرر ذلك تبين لنا أهمية السياق في الترجيح بين المعاني، وعليه يمكن أن نجمل أهمية البحث فيما يلي:

1) السياق هو أحد العوامل التي يرجح بها في مواطن الخلاف، لذا عده الأصليون من المرجحات التي يستعملها المفسر في ترجيح المسائل الخلافية، والناظر في ءايات الله يجد أقوال المفسرين الكثيرة في الاية الواحدة .

2) السياق القرءاني عصمة من الزلل الذي وقع فيه من لم يراع سباق الآية ولحاقها، حيث أخذوا الآية على ظاهرها، فلولا تقييد السياق لبعض المعاني التي بالإمكان أن تكون مرادة وغير مرادة لخرج عن قصدها الصحيح، وقد وجد في كلام العرب الكلمة الواحدة لها أكثر من عشرين مدلول .

3) من قواعد التفسير، النظر في السياق، إذ يعتبر من القواعد المهمة التي لا يمكن إغفالها.

4) ارتباط السياق بكثير من الفنون كعلوم القرءان وأصول الفقه وعلم الدلالة ومنها علم المناسبات وإعجاز القرءان والنظم، فكان لزاما علينا أن نفص في ذلك ونعرف الفروق.

الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة هي: هل يمكن لنا أن نلتمس ترجيح الأقوال عند أبي السعود من خلال تتبع سياق القرءان ؟ وكيف وظف قاعدة السياق في ترجيحاته؟ وهل كان أثر السياق في الترجيح بارزا في تفسيره.؟

الكلام في الترجيح بالسياق مجاله واسع، فأحيانا يرجع للغة وقواعدها وهو الغالب، وأحيانا نجده في المسائل الفقهية، وأحيانا نجده في المسائل العقدية أو

القصصية، وبما أن اتجاه تفسير أبي السعود في الدراسات اللغوية، ملت لهذا الأخير، ولم أغفل المجالات الأخرى فقد اكتفيت بمثال واحد في كل مجال، حيث تتبعت بعض الأمثلة عند أبي السعود وكيف كان من خلالها أثر السياق في الترجيح عنده، واكتفيت بذكر الآيات في المتن ولم أدلل عليها في الهامش كما قمت بتحليل هذه الأمثلة مع ما قاله المفسرون، فكان المنهج المتبع المنهج التحليلي، فجاءت خطة البحث كالتالي:

مقدمة ومبحثا تمهيديا (عرّفت فيه "أبا السعود العمادي") ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: السياق القرآني أهميته وأنواعه، وبيان معنى الترجيح

المطلب الأول: تعريف السياق لغة واصطلاحا

المطلب الثاني: تعريف الترجيح لغة واصطلاحا

المطلب الثالث: أهمية السياق وأنواعه

المبحث الثاني: السياق القرءاني وأثره في الترجيح عند أبي السعود العمادي

المطلب الأول: أثر السياق في بيان معاني الألفاظ والتراكيب

المطلب الثاني: أثر السياق في بيان معنى المخاطب والمتكلم

المطلب الثالث: أثر السياق في عودة الضمير

المطلب الرابع: أثر السياق في مسائل أخرى

خاتمة

تمهيد: من العلماء البارزين في التفسير أبي السعود العمادي، حيث يعتبر تفسيره من التفاسير اللغوية المهمة التي يرجع إليها في الدراسات البيانية للقرآن الكريم فقد اعتنى في تفسيره بالأسرار البلاغية والدرر البيانية كما هو ظاهر في تفسيره فسنقف على شخصية أبي السعود وأهم آثاره العلمية .

تعريف شخصية أبي السعود العمادي: هو العالم الجليل محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (قرية قرب القسطنطينية) بتركيا فهو تركي الأصل ولد سنة

أثر السياق في الترجيح عند أبي السعود العمادي

898هـ من أسرة مشهورة بالعلم والصلاح وكان لأبويه تأثير كبير في نشأته نشأة صالحة، توجه منذ صغره إلى اكتساب المعارف العلمية، درس علوم العربية واشتغل بالتفسير والقراءات، درس المذهب الحنفي وشغل منصب مفتيا في إسطنبول في عصر سليمان القانوني، وبقي في هذه الوظيفة إلى أن توفته المنية سنة 982هـ (الزركلي، 1979،ج7 ص59)

شيوخه وتلاميذه: العلامة أبو السعود العمادي عرف بالعلم والاجتهاد منذ الصغر فكان من أهم الشيوخ الذين كان لهم الأثر البارز في تكوين شخصيته

1. محمد مصطفى العمادي
2. عبد الرحمان بن علي الحنفي
3. سعد الدين بن عيسى
4. سعد الدين بن سليمان المعروف بابن كمال باشا

أما تلاميذه فقد كان له طلبة كثر نذكر منهم

1. عبد الرحمان جمال الدين الحنفي
2. محمد بن أحمد المعروف ابن بزن
3. حسن بن يوسف الصمداني
4. عبد القادر بن حاجي الجنابي

آثاره العلمية: خلف أبو السعود عدة مؤلفات، نذكر منها (ابن عماد الحنبلي،1986 م، ج10 ص 584)

1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرءان الكريم (تفسيره المشهور)
2. تهافت الأمجاد على كتاب الجهاد في الفقه الحنفي
3. حسم الخلاف في المسح على الخفين
4. رسالة في تسجيل الأوقاف
5. الفتاوى وقد رتبها في أبواب الفقه

6 . قانون المعاملات

7 . رسالة في الأدعية المأثورة

المبحث الأول: السياق القرآني أهميته وأنواعه، وبيان معنى الترجيح

السياق من أبرز القواعد التي يستعين به المفسر لبيان مراد الله، وقد عبّر به الأولون في كتبهم بالسباق واللحاق والمناسبة (الزركشي،2013، ص 23) ولم يعرفه أحد منهم إلا ما جاء في كتب المتأخرين، وسنبيّن تعريفه وذلك من خلال الوقوف على التعريف اللغوي

المطلب الأول: تعريف السياق لغة واصطلاحا

تعريف السياق لغة:

عند النظر في كلمة "سوق" واشتقاقاتها، نجد لها استعمالات كثيرة، ثم إننا نحاول أن نربط المعنى اللغوي الذي يناسب المعنى الاصطلاحي .

جاء في كتاب القاموس المحيط للفيروز أبادي: "ساق: ولدت ثلاثة بنين على ساق متتابعة لا جارية بينهم" (الفيروز أبادي، 2008، ص 806).

فيكون معنى ساق: التتابع

قال الزمخشري: " وهو يسوق أفضل الحديث، وهذا الكلام مساقه كذا، وجئتك على سوقه أي: علم سرده ". (الزمحشري، 1998، ص 484)

فجاء معنى ساق: السرد والعرض

قال الجوهري: " السياق: نزع الروح، يقال رأيت فلانا يسوق أي ينزع عند الموت " (الجوهري، 2008، ص 573)

فمعنى ساق عند الجوهري النزع والسكرات، وقد جاء في محكم التنزيل "وهم يساقون إلى الموت"

قال ابن فارس: " السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقا،

والسنّيقة: ما استيق من الدواب، ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها وأسقته، والسوق مشتقة من هذا (البيع والشراء)لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها، ويقال امرأة سوقاء ورجل أسوق إذا كان عظيم الساق، والمصدر السوق " (ابن فارس، 2008، ص 423)

فمن خلال تعريف ابن فارس استخلصنا عدة معانٍ: القيد، الجمع، ساق الإنسان، العرض، الانسياق والمتابعة والمناولة .

والذي يظهر من هذه التعريفات أنها متباينة وبعضها متقارب، فكل واحد منها يدل على شيء وإن كانت متقاربة لكنها فروق.

تعريف السياق اصطلاحا:

عند الرجوع إلى كتب التفسير وعلوم القرءان ومن كَتب في البلاغة القرآنية لم نجد منهم من عرّف السياق وإنما كانوا يطلقون عليه بالسباق أو اللحاق أو المناسبة، وفي الحقيقة هناك فرق بين السياق والسباق واللحاق إذ هو فرع منه، كما أن هناك فرق بين السياق والمناسبة، وهو ما سنراه بعد تعريفنا للسياق من خلال الاستعانة بالتعاريف اللغوية التي ذكرناها.

عرّفه الدكتور المثنى عبد الفتاح محمود بقوله: " تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع وانفصال " (المثنى عبد الفتاح محمود، 2022م، ص 26 -27).

عند ملاحظة هذا التعريف يجد أنه مأخوذ كله من التعاريف اللغوية التي سقناها آنفا.

. فقوله: " تتابع المعاني " فهذا الذي ذكره صاحب القاموس المحيط في تعريف كلمة ساق: ولدت ثلاثة بنين على ساق متتابعة لا جارية بينهم.

. وقوله: " وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية " هو معنى الجمع الذي ذكره ابن فارس حين قال ومنه السوق الذي يجمع كل شيء.

. وقوله: " لتبلغ غايتها في بيان المعنى المقصود " هو معنى ساقُ الإنسان الذي تبلغه المقصود كما جاء عند ابن فارس

المطلب الثاني: تعريف الترجيح لغة واصطلاحا

الترجيح لغة: مادة رجح تدل على رزانة وزيادة في الفضل قال صحاب القاموس المحيط: " رجح الميزان يرجح، مثلثة، رجوحا ورجحانا: مال " (الفيروز أبادي، 2008، ص 199)

وقال الزمخشري: " رجحت إحدى الكفتين على الأخرى، وأرجح الميزان، وإذا وزنت فأرجح ...ورجّح إحدى القولين على الآخر، وترجّح في القول: تميّل فيه " (الزمخشري، 1998، ج1 ص 338)

2 . الترجيح اصطلاحا:

عرفه الأصوليون: تقوية إحدى الإمارتين على الأخرى لدليل (الفتوحي، 2015م، ص 717)، قال الأمين الشنقيطي: " تقوية أحد الدليلين المتعارضين " (الأمين الشنقيطي، 1999م، ص 538)

قال ابن اللحام: " تقديم أحد طرفي الحكم لاختصاصه بقوة في الدليل " (ابن اللحام، 2007م، ص 757)

المطلب الثالث: أهمية السياق القرآني وأنواعه

. أهمية السياق القرآني:

السياق القرآني ذو أهمية عظيمة، نقف على بعض فوائده من خلال النقاط الآتية:

1 . لا يمكن لأي مفسر يريد أن يقف على مراد الله إلا من خلال الاحتكام إلى سياق الآية في سباقها ولحاقها فالكلمة القرآنية لها معنى في ضوء سياقها، فالسياق

أثر السياق في الترجيح عند أبي السعود العمادي

أفضل قرينة تكشف عن حقيقة معاني الألفاظ، يقول فاضل السامرائي: " وعدم النظر في السياق قد يوقع في الغلط أو عدم الدقة في الحكم، وذلك نحو قول الأخفش في زيادة (من) الجارة فإنه لم يشترط في زيادتها تنكير المجرور ولا سبقه بنفي أو شبهه، واستدل على رأيه بقوله تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) نوح 4،فقد ذهب إلى أنها زائدة، بدليل قوله تعالى (يغفر لكم ذنوبكم) الصف 12، وهذا الاستدلال باطل، فإنه ينبغي النظر إلى السياق، فإنّ قسما يدعو إلى مغفرة بعض الذنوب، وبعضها يدعو إلى مغفرة الذنوب كلها، هذا علاوة على أنه لم يرد (يغفر لكم ذنوبكم) من دون (من) إلا في الأمّة المحمدية دون غيرها من الأمم، إكراما لها، فلا تكون (من) زائدة " (فاضل السامرائي، 2020م، ج1 ص14)

2 . للسياق دور كبير في ظهور كتب الأشباه والنظائر التي جمعت الكلمة الواحدة في القرءان على دلالات متعددة وذلك من خلال النظر في سياقها

3 . كما أن للسياق فضل في كشف علم المناسبات، إذ به يعرف مناسبة الآية مع الآية والسورة مع السورة وارتباط آخر الآية بأولها

4 . السياق القرآني قرينة قوية في أثر الترجيح لذلك عدّ الأصوليون السياق ضابطا من ضوابط الترجيح التي لا يمكن اغفالها

5 . النظر في السياق القرآني هو المنهج العدل الوسط الذي يسلم به المرء فقد ضلت طوائف من هذه الأمة بسبب اهمالهم للسياق القرآني، ومناظرة ابن عباس للخوارج تبيّن عدم احتكام هؤلاء لسياق القرءان وحملوه على ظاهره فبيّن لهم ابن عباس ارتباط هذه الآيات بالآيات التي قبلها وبعدها فرجع منهم خلق كثير

6 . السياق من أعظم دلائل الإعجاز فمن خلال هذا الإتلاف العجيب بين السياقات القرآنية لا تجد تعارضا البتة بل تجد فيه أسرارا ودررا جمة

7 . ارتباط السياق القرآني بكثير من المواضيع التي ذكرت في كتب علوم القرءان وعلى غرارها علم المناسبات والنظم والترجيح والالتفات والخاص والعام والأشباه والنظار

. أنواع السياق القرءاني:

السياق القرءاني له أنواع عدة تتنوع باعتبارات متعددة وهو ما نراه في تدليننا عليه:

النوع الأول: السياق من حيث العموم والخصوص (المثنى عبد الفتاح، 2022م، ص 138)

أ) السياق العام: هو سياق السورة التي يشكل وحدة عضوية متكاملة متتامة أي يمثل السياق العام السورة بتمامها وهو الذي يكون من مطلع السورة حتى منتهاها، ويشكل هذا الصنف نوعان اثنان:

1 . سياق ذو مقاطع متعددة

2 . سياق ذو مقطع واحد

ب) السياق الخاص: وهو سياق المقطع أي ينظر فيه إلى المقاطع والمفاصل وعليه ينصبّ التفسير التحليلي للآيات وبه تعرف مناسبات الآي بعضها ببعض

النوع الثاني: السياق من حيث المقال والمقام (المثنى عبد الفتاح، 2022م ص109)

يعرف هذا النوع بسياق الموقف والسياق اللغوي، هذا في الدراسات المعاصرة أما في التراث الإسلامي فيقسمونه إلى سياق داخلي (لغوي) وسياق خارجي (سياق موقف)

1 . سياق المقال: وهو السياق اللغوي وهو تتابع المعاني وانتظامها عبر سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية دون انقطاع أو انفصال،

2 . سياق المقام: وهو سياق الموقف، أو الخارجي كما أخبرنا عنه ويقوم على استجماع المكونات مجتمعة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو تاريخية أو نفسية، وهذا النوع من السياق لابد أن تكون مجتمعة يعني السياق الداخلي والخارجي

النوع الثالث: السياق من حيث الترجيح

السياق القرآني هو عبارة عن السابق واللاحق يقول المثنى عبد الفتاح محمود: " ولا يظهر السباق واللحاق أحدهما أو كلاهما إلا في الترجيح الدلالي، أو التقوية والتوجيه، أو دفع المشكل، ورفع الوهم، فالسباق في سياق ما يرجح معنى على آخر، واللحاق في سياق آخر يرجح معنى على معنى آخر، وقد يجتمعان . أي: السباق واللحاق . فيرجحان معنى على آخر " (المثنى عبد الفتاح، 2022م، ص 178)

المبحث الثاني: السياق القرآني وأثره في الترجيح عند أبي السعود العمادي

الذي يهمنا في دراسة الموضوع هذا الشق من البحث، لأنه يشمل الجانب التطبيقي عند أبي السعود العمادي في تفسيره، والذي سنرى من خلاله الأمثلة إلى استناد أبي السعود إلى السياق في ترجيحاته، وقد احتوى هذا المبحث أربعة مطالب.

المطلب الأول: أثر السياق في بيان معاني الألفاظ والتراكيب

في هذا المطلب تكلمنا على بيان معاني الألفاظ والتراكيب، فقد اختلفت أراء المفسرين في ذلك وتباينت وكان المرجح فيها السياق، حيث حدّد اللفظة المناسبة للآية.

المثال الأول: قال تعالى: " يا بني ءادم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " (سورة الأعراف الآية 31)

اختلف أهل التفسير في الزينة على أقوال منهم من قال الزينة هي السترة ومنهم قال الزينة ما يتزين به للصلاة من لبس الجميل واستعمال الطيب، والتنظف

القول الأول: المراد بالزينة هي السترة وبه قال ابن عباس ومجاهد وعطاء والنخعي ومالك (ابن جرير الطبري، 2015م، ج5 ص 282)

القول الثاني: المراد بالزينة كل ما يتزين به واختاره أنس وقتادة والأوزاعي وابن كثير (ابن كثير، [د.ت]، ج3 ص 160)

. رجح أبو السعود العمادي بأن الزينة في الآيه هي السترة، لأن الله في الآيات السابقة كان يتكلم على السترة وقد أمر بها بني آدم (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا) ثم بعدها قال (خذو زينتكم عند كل مسجد) .ثم إنّ الآية نزلت في قوم كانوا يطوفون عراة بالبيت، فأمرهم بالسترة .

يقول أبو السعود العمادي: " (يا بني ءادم خذوا زينتكم) أي ثيابكم لمواراة عورتكم ...فيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة " (أبي السعود العمادي، [د.ت]، ج2 ص 247)

المثال الثاني: قال تعالى: " والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس " (سورة التكوير الآية 17)

اختلف أهل التفسير في العسعس هل هو إقبال الظلام أم الإدبار

القول الأول: أن المراد به إقبال الظلام وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري (البغوي، 1992م، ج5 ص 529)

القول الثاني: أن المراد به الإدبار وبه قال ابن عباس وقتادة والضحاك واختاره الإمام الطبري (ابن عاشور، [د.ت]، ج15 ص 154)

. ورجح أبو السعود بأن (عسعس) هو إقبال الظلام، لأن بعدها ذكر تنفس الصبح وهو إقبال النور، فناسبه إقبال الظلام

يقول أبو السعود العمادي: " أي أدبر ظلامه أو أقبل فإنه من الأضداد ....وقيل معنى إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى (والصبح إذا تنفس) لأنه أول النهار" (أبو السعود، [د.ت]، ج5 ص 840)

المثال الثالث: قال تعالى: " فأمّه هاوية وما أدراك ما هيه " (سورة القارعة الآية 9-10)

اختلف أهل التفسير في معنى كلمة (أمه) على قولين (القرطبي، 2003م، ج10 ص 167):

القول الأول: أم رأسه يعني دماغه، قال به ابن عباس وعكرمة وقتادة (الشوكاني، [د.ت]، ج5 ص 512)

القول الثاني: يأوي إليها وقال به أبو حاتم وابن جرير (الطبري،2015م ج12 ص 500)

. رجح أبو السعود بأن كلمة (أمه) هو المأوى أي أهلها يأوون إليها لأن بعدها قال (وما أدراك ما هي) حيث أوضحت ما هو هذا المأوى بأنها نار حامية .

يقول أبو السعود العمادي: " (فأمه) أي مأواه ...وعبّر عن المأوى بالأم لأن أهلها يأوون إليها كما يأوي الولد إلى أمه وعن قتادة وعكرمة والكلبي أن المعنى فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوسا والأول هو الموافق لقوله تعالى (وما أدراك ما هي نار حامية) فإنه تقرير لها بعد إبهامها والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتفخيم والتهويل " (أبو السعود، [د.ت]، ج5 ص 899)

المطلب الثاني: أثر السياق في بيان معنى المخاطب والمتكلم

في هذا المطلب نتكلم على بيان من هو المخاطب أو المتكلم في الآية لاحتمال وجود مخاطبين كثر، والسياق القرآني هو الذي يحدد ذلك

المثال الأول: قال الله تعالى: " ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين " (سورة يوسف الآية 52)

. اختلف أهل التفسير، من هو المتكلم في الآية، هل هو يوسف عليه السلام أم امرأة العزيز، على قولين: (علي الصابوني، 1990م، ج2 ص 245)

القول الأول: ذهب ابن كثير والطاهر بن عاشور وبعض المفسرين أنا المتكلم هو امرأة العزيز (أبو حيان الأندلسي، 1993م، ج5 ص 312)

القول الثاني: واختار ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة والطبري (فخر الرازي، 1990م، ج9 ص 123) والبغوي والزمخشري، أن المتكلم هو يوسف عليه السلام (مصطفى المراغي، 1998م، ج5 ص 3)

. رجّح أبو السعود إلى أن المتكلم في الآية هو يوسف عليه السلام، لأنه لمّا جاءه الرسول، أراد يوسف أن يبرّء ذمته قبل ملاقاة الملك، لأن بعض الوشاة قد يقولون للملك هذا الذي استعنت به قد وقع منه ما وقع، فهو برّء ذمته وأنه لم يكن ليخون سيده وقد أرسل الرسول ليسأل النسوة ومنهم امرأة العزيز، كل هذا تمهيدا لقوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) .

يقول أبو السعود: "وإنما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته ممّا قذف به لا سيما عند العزيز قبل ان يحل ما عقده، كما يعرب عنه قوله عليه السلام لمّا رجع إليه الرسول وأخبره بكلامهن (ذلك) أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال (ليعلم) أي العزيز (أني لم أخنه) في حرمه كما زعمه لا علما مطلقا، فإن ذلك لا يستدعي تقديم التفتيش على الخروج من السجن ...ممّا يوهم الافتيات على رأيه لئلا يتمكن من تقبيح رأيه عند الملك ...فلا يليق بشأنه عليه السلام في الوقوق بأمره والتوكل عليه " (أبو السعود، [د.ت]، ج3 ص 116)

المثال الثاني: قال تعالى: " قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول " (سورة طه الآية 96)

. اختلف أهل التفسير من المخاطب في لفظة الرسول، إلى قولين (صديق حسن خان، 1992م، ج6 ص 353):

القول الأول: أن المراد به جبريل وبه قال علي وابن عباس والطبري وابن كثير والزمخشري (الزمحشري، 2019م، ج3 ص 86)

القول الثاني: أن المراد به موسى عليه السلام وبه قال فخر الدين الرازي وأبو حيان والطاهر بن عاشور (ابن عاشور، [د.ت]، ج8 ص 296)

. رجّح أبو السعود إلى أن الرسول المراد به هو جبريل فقد ادعى السامري أنه يوحى إليه، لأنه قبلها قال (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي) وأراد أن يخبر بني إسرائيل أنه وقف على أسرار الألوهية فدعّم حجته بأنه يوحى إليه، فالسياق بالسباق هو الذي حددّ معى الرسول

يقول أبو السعود:" الملك الذي أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور، ولعل ذكره بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على مالم يقف عليه القوم من الأسرار الإلهية تأكيدا لما صدّر به مقالته والتنبيه على أخذ ما أخذه" (أبو السعود، [د.ت]، ج3 ص 87)

المثال الثالث: قال تعالى: " فبشرناه بغلام حليم " (سورة الصافات الآية 101)

اختلف أهل التفسير من هو المخاطب في الآية (غلام حليم) ومن هو الذبيح، على قولين:

القول الأول: أن المراد به إسماعيل وهو قول ابن عمر وابن عباس ومجاهد والحسن والشعبي وابن كثير اختاره الشنقيطي (عبد الرحمان السعدي، 2009م ص 831)

القول الثاني: المراد به إسحاق قال به ابن مسعود وأبو هريرة واختاره ابن جرير (ابن كثير، [د.ت]، ج6 ص 24)

. رجّح أبو السعود إلى أن الغلام الحليم: هو إسماعيل عليه السلام فهو الذبيح والذي يرجح ذلك أنه بعدها ذكر إسحاق ثم إن البشارة جاءت لما كان إبراهيم ليس له ولد، ثم جاءت البشارة الثانية عند قوله (وبشرناه بإسحاق نبيئا)

قال أبو السعود العمادي: " فيه بشارات ثلاث، بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما وأي حلم يعادل حلمه عليه السلام، حين عرض عليه أبوه الذبح فقال (يا أبت افعل ما تومر) ...والأظهر الأشهر أنّ المخاطب إسماعيل عليه السلام إذ هو الذي وهب أثر المهاجرة ولأنّ البشارة بإسحاق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام ولقوله عليه الصلاة والسلام (أنا ابن الذبيحين)" (أبو السعود، [د.ت]، ج4 ص 415)

المطلب الثالث: أثر السياق في عودة الضمير

في هذا المطلب نبيّن على من يرجع الضمير في الآية لاحتمال رجوع الضمير إلى أكثر من واحد وسنقف على أقوال المفسرين في ذلك وما الذي رجّحه أبو السعود

المثال الأول قال تعالى: " إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين ءامنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان " (سورة الأنفال الآية 12)

. اختلف اهل التفسير في عودة الضمير عند قوله (فاضربوا) قال بعضهم الملائكة وقال الآخرون هم المؤمنون

القول الأول: المراد به الملائكة وقال به الرازي والقرطبي وابن كثير (شكري الألوسي، 1997م، ج6 ص 258)

القول الثاني: المراد به المؤمنون وقال به الإمام الطبري (الطبري، 2015م، ج5 ص 625)

أثر السياق في الترجيح عند أبي السعود العمادي

رجّح أبو السعود العمادي إلى أن الضمير يعود على المؤمنين لأنهم هم المخاطبون بالتثبيت عند يقول الله لملائكته (فثبتوا الذين آمنوا) ومبينا كيفية التثبيت حيث يكون عند ضرب الأعناق من طرف المؤمنين

يقول أبو السعود: " (فاضربوا) تفسيرا لقوله تعالى (فثبّتوا) مبينا لكيفية التثبيت ...فقوله (فثبتّوا) تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولي سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون " (أبو السعود، [د.ت]، ج2 ص 349)

المثال الثاني: قال تعالى: " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين " (سورة البقرة الآية 22)

. اختلف أهل التفسير في عودة الضمير عند قوله (مثله) ذهب بعضهم إلى أن الضمير يرجع إلى التنزيل وهو القرءان وقال الآخرون يرجع إلى العبد وهو الرسول، على قولين:

القول الأول: أن الضمير يرجع على القرءان وبه قال قتادة ومجاهد والطبري والزمخشري (الزمخشري، 2019م ج1 ص 152)

القول الثاني: أن الضمير يرجع على المنزل عليه وهو النبي صلى الله عليه وسلم وبه قال أبو جعفر الحنفي وحكاه الإمام الطبري (الطبري، 2015م، ج1 ص 231)

. رجّح أبو السعود إلى أن الضمير يرجع إلى القرءان لأن المقام مقام تحدي، وقد تحدّاهم هنا بسورة واحدة، وكان قد تحدّاهم من قبل بعشر سور، ولو اجتمع بعضهم ببعض، ولو كان يرجع إلى الرسول وإن كانوا ليسوا مثل النبي صلى الله عليه وسلم ،. فقد يدّعون أنهم مثله أو أفضل، أو يجتمعون وتكون في كل واحد منهم صفة حميدة، فاجتماعهم يكون أفضل في ظنهم، فقوله (فأتوا بسورة) ليس البشرية، وإنما القرآنية

قال أبو السعود: " فالضمير حينئذ للمنزّل عليه حتما، لما أنّ رجوعه إلى المنزل يوهم أنّ له مثلا محققا قد ورد الأمر التعجيزي بالإتيان بشيء منه، وقد عرفت ما فيه بخلاف رجوعه إلى المنزل عليه فإن تحقق مثله صلى الله عليه وسلم في البشرية والعربية والأمية يهون الخطب في الجملة، خلا أن تخصيص التحدي بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للإتيان المأمور به لا يدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم بل يوهم قدرتهم على ذلك في الجملة فرادى أو مجتمعين مع أنه يستدعي عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله فأين هذا من تحدّى أمة جمة وأمره بأن يحتشدوا في حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به " (أبو السعود، [د.ت]، ج1 ص 79)

المطلب الرابع: أثر السياق في مسائل أخرى

المتتبع لأثر السياق في القرءان يجد تطبيقات كثيرة غير التي ذكرناها، سواء في مسائل الفقه أو علوم القرءان أو مسائل الاعتقاد، وبما أننا ذكرنا في المقدمة، أنّ جل اهتمامنا كان ينصبّ على معاني الألفاظ، اكتفينا بالاستدلال على مثال واحد في هذه المسائل.

1 . الترجيح بالسياق في مسائل الفقه: الناظر في مسائل الفقه يجد أمثلة كثيرة، اختلف فيها الفقهاء ولم يكن لها مرجح سوى السياق القرآني، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: " وأتمّوا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي " (سورة البقرة الآية 196)

. اختلف الفقهاء في الإحصار هل المراد به العدو أم سائر الإحصار من مرض وعسر، كفقدان الراحلة. وعدو وغيره، على قولين:

القول الأول: هو كل ما يحبس الحاج من مرض وعدو واعسار وهو قول ابن مسعود والنخعي ومجاهد واختاره أبو حنيفة (الطبري، 2015، ج 2 ص 77)

القول الثاني: هو خاص بالعدو فقط وبه قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب واختاره مالك والشافعي (المصدر السابق ج2 ص 77)

. رجّح أبو السعود إلى أنّ الإحصار خاص بالعدو وذلك من خلال الإحتكام إلى السياق، لأنه بعدها قال (فإذا أمنتم) والإئتمان لا يكون إلا من العدو

قال أبو السعود: " (فإن احصرتم) أي منعتم من الحج، يقال حصره العدوّ وأحصره إذا حبسه ومنعه من المضي لوجهه، مثل: صدّه وأصدّه والمراد منع العدو عند مالك والشافعي لقوله تعالى (فإذا أمنتم)ولنزوله في الحديبية ولقول ابن عباس لا حصر إلا حصر العدو" (أبو السعود، [د.ت]، ج1 ص 242)

2 . الترجيح بالسياق في علوم القرءان: مسائل علوم القرءان كثيرة: منها أسباب النزول ومنها الناسخ والمنسوخ ومنها المكي والمدني، وقد اختلف العلماء في كثير من المسائل فيها، وكان الترجيح بالسياق هو الفاصل، وقد اكتفينا بمثال في أسباب النزول، من أمثلة ذلك

: قال تعالى: " ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " (سورة ءال عمران الآية 85)

. اختلف العلماء في أسباب نزول الآية، فقال بعضهم نزلت في أناس مؤمنين كانوا قد ارتدوا، وقال بعضهم نزلت في أهل الكتاب على قولين:

القول الأول: نزلت في رجل من الأنصار قال به ابن عباس وعكرمة ومجاهد واختاره ابن كثير (البغوي، 1992م، ج1 ص 503)

القول الثاني: نزلت في اليهود وبه قال الحسن والطبري والزمخشري (الطبري، 2015، ج1 ص 163)

. رجّح أبو السعود أنّ الآية نزلت في رجال من المؤمنين كانوا قد ارتدّوا لأن الله سبحانه بعدها قال (وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات) فهم بعدما سمعوا

الوحي والبينات وشهدوا أنه رسول الله ارتدّوا وكفروا فلن يقبل منهم ولو أنفقوا ما في الأرض جميعا

يقول أبو السعود: " قيل هم عشرة رهط ارتدّوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود بني قريظة وبني النضير ...وقوله تعالى (وشهدوا) في قوة أن يقال بعد أن آمنوا " (أبو السعود، [د.ت]، ج1 ص 382)

3 . أثر السياق في إثبات صفات الله: منهج أهل السنة والجماعة هو إثبات صفات الله على ما تليق بجلاله، وخالفت طوائف أخرى منهم المعتزلة، وقد كان أبو السعود العمادي على طريقة أهل السنة، حيث كان استدلالهم من طرق كثيرة منها الاحتكام إلى السياق القرآني، ومن أمثلة ذلك:

-قال تعالى: " ورسلا قد قصصنا عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما " (سورة النساء الآية 164)

. اختلف العلماء في معنى التكليم هل هو الكلام حقيقة أم معنى أنه جرحه بمخالب الحكمة عل قولين:

القول الأول: المراد بالكلام في الآية هو الكلام حقيقة، بأن الله سبحانه كلّم موسى من دون واسطة (الطبري، 2015، ج4 ص 228)

القول الثاني: المراد بالكلام في الآية هو من التكليم، كلمه أي جرحه، لأنّ الله لا يتكلم حقيقة وهو قول المعتزلة (الزمحشري، 2019، ج1 ص 693)

. رجّح أبو السعود العمادي إلى أنّ المراد بالكلام هنا الكلامي الحقيقي، وأنّ الله تعالى كلّم موسى من دون واسطة وهو تشريف له، والسياق يقتضي ذلك، فقد ذكر الله سبحانه بأنه أوحى إلى أنبياءه (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) والتكليم هو منتهى مراتب الوحي، وقوله(تكليما) مصدر ينفي احتمال وقوع المجاز، فما كان الكلام إلا حقيقة.

أثر السياق في الترجيح عند أبي السعود العمادي

يقول أبو السعود العمادي: " قوله (تكليما) مصدر مؤكد رافع احتمال المجاز، قال الفراء: العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلاما بأي طريق وصل، ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكّد به لم يكن إلا حقيقة الكلام، والجملة إما معطوفة على (إنا أوحينا إليك) على القصة وإما حال بتقدير قد كما ينبئ عنه تغيير الأسلوب بالالتفات والمعنى، أن التكليم بغير واسطة، منتهى مراتب الوحي، خصّ به موسى من بينهم "[1]

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ولقد منّ الله علي بإتمام بحثي المتواضع، لا سيما في علم هو أشرف العلوم كتاب الله ومدارسته، (أثر السياق القرآني في الترجيح)، وبعد هذه الكلمات وقفت على النتائج التالية:

1 . تعريف السياق لم يكن عند المتقدمين إنما ورد تعريفه عند المعاصرين، وكان المتقدمون يعبرون عنه بالسباق واللحاق، أو بالمناسبة في كتب علوم القرآن .

2 . من خلال الوقوف على تعريف السياق، وجدنا أنّ له ارتباطا كبيرا مع المعنى اللغوي، وقد تفرّع إلى معانٍ عديدة أُخذت من معاجم كُثر، كل واحد منها أفاد بمعنى.

3 . السياق القرآني من أهم دلائل الإعجاز لما فيه من ارتباط بين الآيات حيث لا تجد خللا فيه ولا تنفك ويكمل بعضها بعضا، ولما يتركه من معانٍ كثيرة في اللفظة الواحدة، وما علم الأشباه والنظائر إلا أثر من آثار السياق.

4 . السياق القرآني قاعدة عظيمة من قواعد التفسير، إذ به تنجلي كثير من المفاهيم

[1] تفسير أبي السعود (ج 1 ص 608)

5 . يعتبر تفسير أبي السعود من التفاسير التي اعتمدت الترجيح عن الطريق السياق، فهو تفسير لغوي بامتياز، لا يستغني عنه طالب الدراسات البيانية، يذكر المعاني الكثيرة للفظة، ويرجح إذا اقتضى الأمر

6 . أكثر ما وقع من اختلاف المفسرين في الآية ليس من باب التضاد والتناقض وإنما من باب اختلاف التنوع، والتقارب في التفسير حيث لا يخرج عن معناه العام.

7 . قد جمع علم السياق مجموعة من العلوم: علوم القرآن، علم الأصول، علم اللغة، علم النحو والصرف علم البلاغة، وكلها يكمل بعضها البعض.

8 . الترجيح بالسياق مجالاته واسعة في القرآن، نستعمله في مجال العقيدة، في علوم القرآن، في الألفاظ والتراكيب، في مسائل الفقه، في القصص والأخبار.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

القرآن الكريم، طبعة مصحف المدينة

1 الأعلام للزركلي ، دار العلم للملايين (بيروت) 1979 ط8

2 . أساس البلاغة للزمخشري، دار الكتب العلمية بيروت 1998 ط1

3 . إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم دار الفكر بيروت

4 . البرهان في علوم القرآن بدر الدين الزركشي دار ابن الجوزي القاهرة 2013 ط1

5 . البحر المحيط أبو حيان الأندلسي دار الكتب العلمية بيروت 1993 ط1

6 . تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري دار الحديث القاهرة 2008 ط 1

7. تفسير ابن كثير عماد الدين ابن كثير دار الأندلس بيروت

8 . تفسير المراغي، مصطفى المراغي دار الكتب العلمية بيروت 1998 ط1

9. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور دار ابن سحنون تونس تيسير الكريم الرحمان في 10 . تيسير كلام المنان، عبد الرحمان السعدي، دار ابن الجوزي السعودية 2009 ط2

11. جامع البيان عن تأويل القرآن، ابن جرير الطبري دار ابن الجوزي 2015 ط1

12 . الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي دار عالم الكتب السعودية 2003

13 . روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شكري الألوسي دار الفكر بيروت 1997

14. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ابن عماد الحنبلي دار ابن كثير بيروت 1986 ط1

15. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني دار قصر الكتاب الجزائر 1990 ط5

16 . على طريق التفسير البياني، فاضل السمرائي دار ابن كثير بيروت 2020 ط2

17. فتح القادير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد علي الشوكاني دار الأرقم بيروت

18. فتح البيان في مقاصد القرآن صديق حسن خان القنوجي المكتبة العصرية بيروت 1992

19 . القاموس المحيط، الفيروز أبادي دار الفكر بيروت 2008

20 . الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، جار الله الزمخشري دار ابن الجوزي مصر 2019 ط 1

21 . مختصر التحرير وشرحه للفتوحي، مؤسسة ابن عثيمين الخيرية السعودية 2015 ط2

22. مختصر في أصول الفقه وشرحه،ابن اللحام كنوز إشبيلية السعودية 2007 ط1

23 . مذكرة أصول الفقه محمد الأمين الشنقيطي دار اليقين مصر 1999 ط1

24. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) فخر الدين الرازي دار الكتب العلمية بيروت 1990 ط1

25 . مقاييس اللغة ابن فارس دار الحديث مصر 2008 ط1

26 . معالم التنزيل في التفسير والتأويل دار الفكر بيروت 1992

27 . نظرية السياق القرآني، المثنى عبد الفتاح محمود دار النفائس الأردن 2022 ط2